بيتهوفن

الحبيبة .. المجهولة

ولد لودفيج فان بيتهوفن فى بون عام ١٧٧٠م وتوفى فى فيينا عام ١٨٢٧م ، جاء جده من هولندا واستقر فى مدينة بون حيث عمل موسيقيًّا فى كنيسة ،أما والده فقد عمل كمنشد فى نفس الكنيسة.

تركت الصعوبات المالية ووفاة والده عام ١٧٩٢م أثرًا بالغًا فى حياة بيتهوفن. بعد أن فشل والده فى تعليمه أصول فن الموسيقى منذ صغره اضطر والده إلى جعل ابنه يتعلم فنون الموسيقى تحت يد الأستاذ C .G Neefe .

فتح هذا الأستاذ أمام بيتهوفن آفاقًا واسعة فى المحيط الأدبى والفلسفى وفى ذلك الوقت تم تأسيس جامعة والتحق بها بيتهوفن .

مهدت صداقة بيتهوفن مع عائلة Von Breuning التى وطدها من خلال تدريس العزف على البيانو لأولاد هذه العائلة الطريق أمام سماع الأحاديث التى كان يتبادلها أفراد العائلة مع الأدباء والشعراء الذين كانوا يأتون إلى قصرهم فى زيارات غير رسمية وسماع ما كان يقال عن أعمال " كانت " وغوتيه وشيللر وهردر.

وفى عام ١٧٨٤ اتفق معه رئيس الأساقفة للعمل فى الكاتدرائية كعازف أرغن ، وبعد ثلاثة أعوام سمح له بالذهاب إلى فيينا لكى يكمل تحصيله الموسيقى على يد الأساتذة المشهورين هناك.

اضطر بيتهوفن إلى التوقف عن أخذ الدروس والعودة إلى بون بسبب وفاة والده .

وفى عام ١٧٩٢م عاد إلى فيينا مرة أخرى لكى يدرس تحت يد الأستاذ "هايدن" الذى كان قد تعرف عليه فى بون فى نفس السنة وعرض عليه بعضًا من أعماله الموسيقية.

ألف خلال فترة صباه أعمالاً كثيرة أهمها " مرثية بمناسبة وفاة الإمبراطور جوزيف الثانى " ١٧٩٠م.

عاش بيتهوفن فى فيينا حتى نهاية عمره ، وانقطعت علاقته ببون فى نفس السنة التى قدم فيها هايدن بعض مقطوعاته عندما اكتسحت الجيوش الفرنسية هذه المدينة.

طلب بيتهوفن من أفراد عائلته .. شقيقته كارل وجوهان الانتقال للعيش

معه فى فيينا وأمن لهما عملاً فيها .

وفى فيينا تلقى بيتهوفن دروس الموسيقى على يد أستاذه هايدن، ورغم أن العلاقة بينه وبين أستاذه لم تكن قوية فقد فتحت مهارته كعازف بيانو وموسيقى متجدد أبواب قصور النبلاء فى فيينا .

تعرف خلال عمله على شخصيات المدينة كما تعرف بأصحاب دور النشر الموسيقى.

بين عام ١٧٩٥م تاريخ (أول حفلة موسيقية عامة قدمها بيتهوفن)، وعام ١٨١٥ عندما اضطر للتوقف عن عمله كعازف بيانو وكقائد أوركسترا بسبب إصابته بالصمم ، عرف بيتهوفن أعظم فترة من حياته من جهة النجاح والمال.

خلال تلك الفترة نعم بحماية شخصيات سياسية مرموقة يحسب لها حساب فى الإمبراطورية النمساوية مثل الأمير Lobkowitz والأمير Lichnowsky وغيرهم .

فى نفس الوقت بدأ يشعر بآلام فى أذنيه وتأكد من أنه أصيب بالصمم عام ١٧٩٨ بعد أن أجرى فحوصات طبية فى المستشفى الإمبراطورى ونتيجة لهذه العاهة أصاب بيتهوفن العديد من الأزمات النفسية ولكنه كان يتمكن دائمًا من التغلب على هذه الأزمات بفضل تفاؤله الطبيعى الذى تطور بعد ذلك إلى حب مثالى للإنسانية .

كتب إلى صديقه Wegeler يشكو له حزنه العميق لفقدان حاسة السمع ومعبرًا فى الوقت نفسه عن تصميمه فى الكفاح والإنتاج فى حفل الموسيقى: "من الصعب أن تفهم شكل حياتى المؤلمة التى أعيشها منذ

سنتين.. تقف عاهتى أمامى كشبح مخيف فأضطر إلى الابتعاد عن الناس ، كان الناس يعتقدون بأنى أكره المجتمع مع أنى لا أكرهه فعلاً ".

ظهرت فى هذه الأثناء فى حياة بيتهوفن الشابة الجميلة بتينا برنتانو صديقة غوتيه، وقد جمعت بينهما صداقة وطيدة وتفهم قوى لما يعانيه بيتهوفن من ألم بسبب فقده حاسة السمع وشجعته على تجاوز هذه المحنة.

كان بيتهوفن يعلن من وقت لآخر عن رغبته فى الزواج من إحدى الفتيات المحترمات بنات العائلات العريقة.

أعجب بيتهوفن بتينا وأعرب لها عن إعجابه الشديد بها دون أن يعترف لها بحبه .

وتزوجت بتينا عام ١٨١٠ فأغلق بيتهوفن هذه الصفحة من حياته ولكنه ظل يراسلها أملاً بأن يستطيع من خلالها أن يتعرف على غوتيه العظيم. تقابل بيتهوفن مع غوتيه فى يوليو ١٨١٢ وترك لنا غوتيه فى مذكراته وصفًا دقيقًا وإعجابًا بشخصية بيتهوفن :" لم أقابل فى حياتى فنانًا أشد تركيزًا على أعماله وأكثر نشاطًا وحيوية منه ".

ولكن بيتهوفن وجد أن :" حياة القصور تعجب غوتيه أكثر مما يجوز لفنان الإعجاب بها " .

فى أحد الأيام قابل غوتيه وبيتهوفن وهما يسيران فى إحدى الحدائق العامة الملك والملكة ، فانحنى غوتيه بعد أن رفع قبعته احترامًا فى حين نظر بيتهوفن باستخفاف ولم يأبه لمرأى الاثنين وتابع سيره.

كان صيف ١٨١٢م صيف تأليف بيتهوفن وإكمال السيمفونية السابعة

وصيف مقابلته لغوتيه ، كما كان الصيف الذى كتب فيه رسالته إلى " حبيبتى الأبدية" التى بقى اسمها لغزًا فى حياة بيتهوفن.

فى هذه الرسالة الشهيرة أعظم أسطر الحب : " لا أستطيع أن أعيش إلا بجانبك حتى أنى قررت أن أبتعد عن طريق أى حب آخر إلى أن أطير نحوك لأنى بقربك أستطيع أن أدخل إلى مملكة الأرواح. إن حبك جعل منى فى نفس الوقت أسعد شخص فى العالم وأتعس شخص فى العالم " .

هل كانت هذه الأسطر لجوليتا أو ماريا فون اللتين وجدت صورتيهما فى أحد أدراج مكتبه السرية ؟ هل كانت تيرزا فون أم أماليا شد التى تعرف عليها قبل عام من وفاته ؟ أم كانت فتاة أخرى مجهولة؟ لا أحد يستطيع أن يؤكد ذلك .

حاول المؤلف والمؤرخ جان ماسان فى كتابه عن بيتهوفن تحليل هذا اللغز بموضوعية وأعطانا أسبابًا مقنعة بأن هذه الحبيبة الأبدية هى فى الواقع جوزفين التى أراد بيتهوفن أن يتزوجها فى عام ١٨٠٥م ، ولكن من الواضح أن بيتهوفن الشخص المنطوى على نفسه والمنفتح تجاه أصدقائه الذى كان لا يخفى عنهم سرًا فى قلبه ، عرف كيف يحافظ بهذا السر الذى لا يزال لغزًا حتى يومنا الحاضر .

وفى عام ١٨١٦م أصيب بيتهوفن بالتهاب رئوى واضطر لملازمة الفراش لعدة أشهر معزولاً فى غرفته ، فاقد الأمل لا يستطيع أن يكتب ، ولكنه كتب خطابًا إلى صديقه Zmeskall يقول فيه: " إذا لم تنته هذه الحالة فسوف أكون فى السنة القادمة ليس فى لندن بل فى القبر ، إنى أشعر بأنى أقترب فى كل يوم من القبر لأنى لم أعد أؤلف " .

وهكذا نرى أن بيتهوفن كان عاشقًا للموسيقى ، وأفرغ شحنة قلبه فى التأليف الموسيقى وحقق نجاحًا باهرًا وحظى بشهرة عالمية .

كان بيتهوفن يعانى سكرات الموت ، وسط عدم مبالاة محبى موسيقاه وعدم اهتمام العظماء!

وكان وقع نبأ وفاة لودفيج فان بيتهوفن عظيمًا على محبيه وأصدقائه وعلى الناس بصورة عامة .

قررت السلطات البلدية إقامة مأتم لا تقيمه عادة إلا للأبطال العظام ، واندفع أكثر من عشرين ألف شخص وراءه إلى مقبرة Wahring حيث دفن جثمانه وكان الموسيقى شوبرت بين المشيعين ، لم يكن موت بيتهوفن موت شخص عادى ولم يكن صفحة من التاريخ طويت بهدوء.

لقد بدأت أعمال بيتهوفن دورة حولت الحياة الموسيقية ومهدت طريق المستقبل أمام الموسيقيين الذين جاءوا من بعده.